المفهـوم الخلدوني للسلطة

د. نور الدين زمام
قسم علم الاجتماع
جامعــة بسكرة

توطئـة:

من الضروري عند استنطاق الإرث العلمي الخلدوني بعد أن اكتمل صرحه العلمي التاريخي دراسة وتحليلا عدم الفصل بين مجهوده من أجل عقلنة التاريخ وتخليصه من الأساطير وبين مسعاه العلمي الآخر لدراسة تاريخ الدول والمجتمعات الذي قاده إلى اكتشاف علم جديد له مجاله وقوانينه.

وكما هو مؤكد كان منهج التحقيق التاريخي الذي تبناه في عمله العلمي يقتضي بلورة مثل هذا العلم الجديد، فكما يقول ابن خلدون نفسه ففن التاريخ: « محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، ويُنكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق.(1) »

إذن كان ذلك الاكتشاف بمقاييس ذلك العصر، وحتى بمقاييس القرون اللاحقة ثورةً في حقل المناهج والمعرفة العلمية بشكل عام. وكان فحوى هذا الاكتشاف المزدوج على صعيد الموضوع (مجال العلم الجديد) وعلى أساس المنهج (أسس علمية مبتكرة لرصد الوقائع وتسجيل وتعقب الروايات والآثار) ينطوي على طرح

تصور ثوري عن طبيعة القوانين التي تحكم نشأة وتطور وانحطاط الدول والمجتمعات على النحو الذي عايشه ولاحظه ابن خلدون في بلدان المغرب العربي قيد الدراسة(*)، وهذا ما عبّر عنه بقوله : « وكأن هذا علم مستقل بنفسه: فإنه ذو موضــوع وهــو العمران البشري والاجتماع الإنساني؛ وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. شأن كل علم من العلوم وضعيا أو عقليا، وأعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة؛ غريب النــزعة؛ عزيز الفائدة أعثر عليــه البحث، وأدى إليه الغوص.(2) »

في الواقع لفت ابن خلدون الانتباه إلى وجود ديناميكية اجتماعية تحكمها قوانين محددة ينبغي على عالم الاجتماع اكتشافها، وتتبدى أو تتمظهر هذه القــوانين، فــي شكلها العام، على شكل صراع تقوده جماعة اجتماعية اســتوفت شــروط تلاحمهــا وتعاضدها، تنوي استكمال سيطرتها واستحواذها على السلطة الـسياسية برمتهــا، وإقصاء أي مناوئ محتمل، وكذا الحفاظ على الحكم أطول مدّة ممكنــة، فضلا عــن تعميم السيطــرة على المجتمع بأسره (3).

ووبسط ابن خلدون هذه الاستنتاجات التي انتهى إليها في إطار تحليل سوسيولوجي عام ينطلق من الأسس التي يقوم عليها المجتمع في إطار تحليل بنــائي تــاريخي غيــر ساكن، مشيرا إلى مختلف العوامل التي تمهّد تصاحب نشأة المجتمعات والدول.

وكما عاب على المؤرخين عدم تحققهم من الأخبار والروايــات وجهلهــم بطبــائع الأحوال في العمران عاب عن الذين تناولوا الظــواهر الـسياسية والاجتماعيــة عــدم اعتمادهم وتقيدهم بالمنهج التاريخي؛ حيث نجده مثلا في الفصل الثالــث يعيــب علــى الطرطوشي في كتابه "سراج الملوك" عدم تناوله لسيرورة نشأة وتطور الدولــة، فكمــا يقول ابن خلدون عنه: « كلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها، إنما مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لأهله (4) »

للوقوف على مفهوم ابن خلدون للسلطة يتعين دراسة الأسس التي يقوم عليها تحليله السوسيولوجي للمجتمع، تمهيدا لتناول العمليات التي تتشكل من أنماط الحياة الاجتماعية، وما ينتج عنها من مظاهر مختلفة للحياة الاجتماعية وأشكالا محددة للممارسة السياسية، ففي ضوء ذلك كله تتحدد معالم السلطة وترتسم عبر مراحل تشكلها وتطورها وسقوطها حسب التحليل الخلدوني البنائي الدينامي، وفي هذا الصدد خصص الفصل الثالث من المقدمة لعلم الاجتماع السياسي، حيث أورد فيه ولأول مرة مفهوم الملك (السلطة) [5].

ـ أسس التحليل السوسيولوجي:

عند استعراض التحليل السوسيولوجي الخلدوني لبناء النسق الاجتماعي المغربي يلاحظ بأن هذا الأخير يستند إلى ثلاث ركائز أساسية، تعدّ بمثابة عمليات اجتماعية؛ تشكل أساس فهم نشأة وتطور المجتمعات والدول المغاربية. وتتلخص هذه العمليات في المفاهيم التالية: العمران، العصبية، الملك[6] . وهذه المفاهيم التي ترتسم من خلالها التشكلية الاجتماعية المغربية « La formation sociale Maghrébine » تتداخل فيما بينها في سياق عملية تطور هذه التشكيلة بطرق وأنماط تتباين وفق أشكالها وأنواعها، أي بحسب نمط العمران أو نوع الملك (نمط السلطة) أو شكل العصبية:

أ ـ العمران البشري وتشكل المجتمع الإنساني:

رأى ابن خلدون ضرورة إقامة علم قائمٍ بذاته لدراسة العمران البشري والاجتماع الإنساني، لأن هذا العلم الضروري بالنسبة للمؤرخ ولمعرفة قوانين الاجتماع الإنساني بشكل عام ليس مجرد نثر أدبي يحفل بصناعة الكلام وتنميقه بقصد استمالة الجمهور، فموضوع علم الخطابة كما يقول ابن خلدون يتناول : « الأقوال المقنعة النافعة في استمالة المجهور إلى رأي أو صدهم عنه » وليس الاقتصاد السياسي بالمعنى الذي فهمه القدامى أي علم السياسة المدنية كما يقول ابن

خلدون والذي يدرس « تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه » [7].

ويعتبر اختياره أو اقتباسه (من القرآن الكريم[*]) لمفهوم العمران اختيارا (أو اقتباسا) موفقا؛ وذلك لشمول هذا المفهوم لعمليات الإقامة أو الاستقرار أو التوطن، التحضر أو التمدن؛ الإسكان؛ ممارسة النشاط الاقتصادي وخلافه؛ وكذا تأثير التفاعل وأشكال التكيف مع البيئة على كل هذه العمليات، فضلا عن الأسباب الداعية للاجتماع الإنساني (ضرورات الاجتماع الإنساني) مثل الحاجة الاقتصادية، الأمنية والسياسية وغير ذلك من الأسباب التي جعلت بنو البشر ينفردون لوحدهم بذلك؛ دون غيرهم من سائر المخلوقات، إذن فالعمران حسب ابن خلدون يشير إلى: « التساكن (صور وأساليب إقامة المساكن) والتنازل (أشكال الإقامة والتوطين) في مصر أو حِلّة، للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش، ومن هذا العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال، وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال. ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأنصار والقرى، والمدن والمدائر، للاعتصام بها والتحصن بجدرانها. وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له[8] »

ومن جهة يحتل مفهوم العمران مركزا محوريا في التحليل الخلدوني، فقد كشف من خلاله أيضا تأثير أسلوب العيش (انتحال المعاش) (Mode de vie) على التنظيم الاجتماعي للمجتمع بكل ما يحتويه ذلك من أعراف، عادات، تشريعات وأشكال التضامن الاجتماعي البدوي والحضري، فكما يقول : « اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو اختلاف نحلتهم من المعاش » ويكون الاجتماع والتعاون بين أفراد المجتمع – الذي يعتبر عاملا أساسيا في تشكيل التنظيم الاجتماعي – حسب الحاجة إليه، فأهل البدو « يكون اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القُوت والسّكن والدّفاءة، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة؛ وَيحصل بُلْغة العيش من غير

مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك. ثم إذا اتّسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها، توسعة البيوت واختطاط (تخطيط) المدن والأمصار للتحضر »

وفي ضوء هذا التحليل السوسيولوجي الذي ينطلق من نمط العيش عند تحليل نشأة وتبلور النسْق الاجتماعي؛ توسّع خلدون في تناول أشكال العمران وتأثير ذلك على السكن وأنماط الإقامة والتوطن (أو عدم الاستقرار) وعلى السكان من حيث عادات الطعام واللباس، التقاليد، التدين والصفات الخُلقية (9).

ب ـ العصبية وأساس الملك (السلطة):

بما أن العمران البشري والاجتماع الإنساني ضروري كما يقول ابن خلدون، فيتعيّن معرفة الأسباب الدافعة إلى ذلك. وحسب ما تبين له فمن بين هذه الدوافع الحاجة إلى الأمن ودفع عدوان الناس بعضهم عن بعض سواء لأسباب فردية (نفسية) أو لأسباب سياسية كما هو الحال في المدن والأمصار أو بسبب العدوان الخارجي؛ وإذا كانت الأرياف تتسم بالأمان بسبب الدور الهام الذي يقوم به المشايخ والكبراء، الذين يواجهون العدوان الخارجي بفضل فرسانهم الشجعان.فإن المدن..

وفي هذا الصدد تأتي أهمية العصبية بالنسبة للفرد القائد الذي يجب أن يكون متغلبا على قومه بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك كما يقول ابن خلدون (ابن خلدون: 122)، وكذلك بالنسبة للجماعة، حيث يتسنى لها بفضل عصبيتها القائمة على النسب الواحد أن « تشتد شوكتهم ويُخشى جانبهم، إذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم. وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وأقربائهم موجودة في الطبائع البشرية، بها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم » (ابن خلدون: 113) وفي حال غياب النسب تظهر صور جديدة للمناصرة والتعاضد والنعرة تقوم على الولاء والتحالف « إذ نعرة كل واحد على أهل ولائه

وحلفه للأنفة التي تلحق النفس من اهتضام (هضم حقــوق) جارهــا أو قريبهــا أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللحمة (الرابطة) الحاصلة مــن الــولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها » (ابن خلدون: **114**).

ومن جهة أخرى تعتبر العصبية ضرورية لقيادة المجتمع، فلا يمكن لأي قائد من القيادة في ذلك الوقت؛ من تبوء منصب الحكم وإخضاع القبائل الأخــرى وتنــصيب نفسه رئيسا عليها جميعها إذا لم تكن له قوة اجتماعية « Force sociale » يــستند عليها، أي أن تكون له عصبية قائمة على أساس من النسب: « حيث أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب (القوة)، والغلب إنما يكون بالعصبية..فلا بد في الرياسة على القــوم أن تكون عصبية غالبة لعصيانهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية مــنهم إذا أحــست بغلب عصبية الرئيس بهم أقروا بالإذعان والاتباع » (ابن خلدون: ص**116**).

ولا تنتهي حدود العصبية واستجماع القوة الاجتماعية إلى تبوء منصب الرياسة فحسب، ففي حال تعاظمها فإنها تتجه إلى الاستحواذ على السلطة وبالتالي أحقيته في ممارسة القوة وسن التشريعات وإخضاع المحكومين لقوانينه، ومن هنا كانت السلطة أعلى من مرتبة الرياسة كما يشير إلى ذلك ابن خلدون في قوله « الغاية التي يجري إليها العصبية هي الملك>> أي السلطة، وأن تحقيق ذلك يحتاج إلى استجماع قــوة كبيرة « التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة، لأن الرياسة إنما هي ســؤدد وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر أحكامه، وأما الملك فهــو التغلــب والحكــم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبــة الــسؤدد والأتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر، لا يتركه لأنه مطلــوب للــنفس، ولا يــتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي (الاستحواذ على السلطة) غاية للعصبية كما رأيت » (ابن خلدون: **111 - 123**) ولذلك تسعى القبيلة التي حازت على القوة بواسطة العصبية أن توسع سيطرتها على التجمعات الأخــرى

ولو بالقوة، ويكون من حسن حظها إن أدركت الدولة في آخر مراحل تطورها ففي هذه الحالة سهل عليها الاستحواذ عليها (*).

ولما كانت العصبية هي أساس عملية التحضر (التمدن) والاستحواذ على السلطة(**) كان ضعفها سببا لذهاب السلطة، ويرجع سبب ذلك حسب ابن خلدون إلى تحول اهتمام أصحاب السلطة بالاستهلاك التفاخري والبذخ، مما قد يضعف قدرتهم واستعدادهم القتالي ويقلل من درجة الترابط الاجتماعي وينجم عن ذلك شيوع المذلة والانقياد، والإباحية « وارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل، وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم بالجملة، ولا تزال في انتقاص حتى تخرج من أيديهم،ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك. » (ابن خلدون: ص126)

2 ـ السلطة السياسية: (طبيعتها،أشكالها وأطوارها) :

بيّن ابن خلدون أثر تآكل العصبية على الدول؛ وبالتالي ووقوعها فريسة في أيدي قوى جديدة صاعدة أو تحت رحمة عدو خارجي متربص بشكل موسّع حيث ذكر الأسباب الداعية إلى فشل هذا التلاحم الاجتماعي وكسر شوكة العصبية مستشهدا بالأحداث التاريخية المختلفة. وأرجع عوامل انهيار الحكم شيوع الترف والمبالغة في البذخ على حساب إعداد القوة، أو تفضيل حياة الدعة على حساب التعمير والنشاط، مما يؤدي إلى تلاشي حتى القوة الاجتماعية(أو المجتمعية) والاقتصادية وهكذا: « فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب عليهم، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، بما خَضِد (ضعف، كسّر) الغلب (السيطرة) من شوكتهم (قوتهم)، فأصبحوا مغلوبين لكل متغلب وطُعمة لكل آكل، وسواء حصلوا على غايتهم من الملك أولم يحصلوا. » (ابن خلدون : 129) ومن الأسباب المؤدية أيضا إلى انهيار الدول أيضا الاستبداد السياسي، حيث أن السلطة تقتضي – حسب ابن خلدون – التفرد بالمجد مما

يجعل القوى الاجتماعية الأخرى التي تشكلت منها سلطة الدولة تصاحب بخيبة الأمل، وقد تتوارث المذلة والانصياع مما ينجم عنه فقدان المعارضة وتقبل لأمر الواقع وعدم مقاومة الاستبداد والفساد(**)، وقد ينجر عن ذلك زيادة نفقات الدولة في الأمور غير الاستثمارية مما يثقل كاهل الطبقات الفقيرة بالجبايات المختلفة، ومن جهة أخرى يؤثر البذخ على الطبقات الحاكمة فتضعف قوتهم، وتضعف قدرتهم على حماية الدولة (10) .

وبالرغم من أهمية العصبية في بداية تأسيس الدولة، حيث بها تتشكل القوة التي تستحوذ من خلالها القبيلة على السلطة، إلا أنه بعد استقرار الحكم وتحوله في الغالب إلى حكم وارثي يُصبح الانقياد والطاعة أمرا معتادا عاديا من دون حاجة إلى عصبية أو قوة لقهر الاتباع. (ابن خلدون: 135)، ومن جهة أخرى، وفي سياق الحديث عن تأسيس الدولة أكّد على أهمية قيام ذلك على أساس من الدين، دون أن يعني ذلك التقليل من روابط النسب؛ حيث يرى بأنه بقدر ما تحتاج الدولة إلى أساس ديني من شأنه توحيد شمل الأمة وتجميع جهودها، بقدر ما تحتاج الدعوة الدينية – التي تشكل نواة الدولة – أيضا إلى عصبية تشد أزرها، وقاده هذا الاستنتاج إلى تقرير حقيقة هامة مفادها أن الحركات الدينية التي افتقرت إلى عصبية مصيرها إلى الفشل، وأن دعوتهم تموت في مهدها كما حدث في حالات عديدة سرده في ذات الموضع. وذهب إلى أبعد ذلك حينما انتقل من مقام التحليل السوسيولوجي إلى مقام إصدار الأحكام الشرعية حيث "أفتى" بأن القائمين على الدعوة "الإسلامية " الذين يفتقرون إلى العصبية "مأزورين غير مأجورين>> لأنهم ينبرون لعمل يحتاج إلى قوة اجتماعية تسنده، بسبب كون « أحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي وراءها عصبية القبائل والعشائر » (ابن خلدون: 139)

وإذا كانت العصبية مهمّة لتكوين الدولة إلا أن تعدد العصبيات كما يرى ابن خلدون قد لا يسمح بقيام نظام مركزي قوي، بل قد يُفضي إلى نشوء مجموعة من المتحدات القبلية المنكفئة على نفسها والمستقلة بقوتها، وهذا ما حدث في بلدان

المغرب في بداية العهد الإسلامي، فلا بد من تفرد قبيلة ما بالقوة بحيث تندمج تحتها القبائل بصورة تحقق الانسجام، أما إذا تكافأت القوى فلا يحصل انسجام(*).

وبعد أن تحدث ابن خلدون عن أهمية العصبية والدين في تأسيس الدولة، وأثر ضعفها في انهيارها أوضح بأن للدولة أعمار مثل الأشخاص الطبيعيين،فهي تمر بثلاث أجيال، وأن الجيل يصل إلى أربعين سنة. وفي الجيل الأول تكون الدولة على عهدها الأول تتسم بسمات البداوة من خشونة في الطباع وفي أسلوب العيش، وقوة في العصبية وفي الاستعداد القتالي. وفي الجيل الثاني، يحدث تحول اجتماعي بسبب تبوئهم الحكم « تحول حالهم بالملك» وانتقالهم من عهد البداوة إلى طور الحضارة(*)ومن التقشف المفروض إلى البذخ والترف، وعلى المستوى الاجتماعي – السياسي : « من الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة. » وبحلول الجيل الثالث يكون أفراد السلطة قد فقدوا بسبب انغماسهم في اللهو والترف والبذخ استعدادهم القتالي أي : " ملكة القهر"، وأصبحوا عالة على الدولة؛ غير قادرين على الدفاع عنها مما يعرضهم لمطامع تطيح بسلطتهم وتعجل بذهاب الحكم. وفي حالة عدم وجود عدوان خارجي فإن الدولة بسبب فقدانها لأسباب القوة الاجتماعية والسياسية تسقط لوحدها صريعة الضعف والهرم في جيلها الرابع على الأكثر(11).

حاول ابن خلدون الذهاب بعيدا في دراسته لمراحل تطور الدولة، حيث حلّل ذلك من خلال تحديد أطوار تمر بها منذ تأسيسها إلى لحظة سقوطها، وهو إذ يتحدث عن الدولة فإنه يركز بالأساس عن أفراد السلطة، حيث يشير إلى صفاتهم وسلوكياتهم التي تتغير وتتشكل حسب أطوار الدولة، مما يكشف عن تحليل سوسيولوجي فريد وغير مسبوق؛ يراوح بين المستوى الجزئي والكلي في إشارة بالغة إلى تأثير البنية السياسية على قواعد السلوك والسّمات الخُلقية للجماعة (الحاكمة) فهو يقول : « يكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في

الطور الآخر، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه، وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار. » (ابن خلدون: ص 152)

1 - ويشير الطور الأول إلى مرحلة الاستحواذ على الحكم و « انتزاعه من أيدي الدولة السالفة » أي من خلال القوة حسب عرف ذلك العصر، وفي هذه المرحلة يتجه الحاكم إلى محاولة جمع الأموال وتدعيم حكمه وإرساء أركان الدفاع والأمن، ولا يحاول الحاكم التفرد بالسلطة ما دامت العصبية التي تم بها الاستحواذ على الحكم، لأنها أساس القوة أو "الغلب" حسب التعبير الخلدوني لا زالت في عنفوانها.

2 - غير أنه في الطور الثاني، الذي هو "طور الاستبداد" ينفرد الحاكم بالسلطة ويبدأ يكبح حريتهم « عن التطاول للمساهمة والمشاركة » أي أنه يصبح لا يؤمن بالمشاركة السياسية في صنع القرار، ولا المشاركة في التمتع بمزايا الحكم. ولا يكون همّه في هذه الفترة إيجاد واتخاذ الموالين له من مختلف المسؤولين كبدلاء عن قومه الذين بفضلهم تم له تبوء سدّة الحكم « واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل نسبه.. »

3 - وهكذا وعند الوصول إلى الطور الثالث الذي هو طور الفراغ والترف، يكون الحاكم تخلص ممن يريد اقتسام مزايا السلطة معه، وفي هذه الفترة ينصرف الحاكم إلى جمع الضرائب وتنظيم أمور الدولة، والتوسع في العمران وتشجيع الحرف وأعمال البناء والتشييد وتخطيط المدن وإقامة الصروح الثقافية، وتنظيم الجند. ويلاحظ بأنّ ابن خلدون يعود في هذا العنصر للإشارة إلى تحول اهتمام الحاكم بعشيرته وبقية القبائل والأشراف لمنحهم بعض الامتيازات عكس ما حدث في طور الاستبداد (الطور الثاني). فبعد أن يُحكم قبضته على السلطة وبعد نجاح سياسته المالية والعمرانية وغيرها يعود فيقرب عشيرته لأنه آمن على

سلطته الآن من أن يُقاسموه سلطاته وقراراته. ويؤدي ذلك إلى انتهاء الاستبداد لأن " أصحاب الدولة" أي النخب ذات النفوذ في السلطة أو التي تمتلك عنصرا من عناصر القوة داخل السلطة يصبحون يتمتعون بنوع من الاستقلالية « لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم، بانون لعزهم.. »

4 - تأسيسا على ذلك، فبحلول الطور الرابع، طور القنوع والمسالمة، يستقر الحكم، ويصبح الحاكم يهتم بتخليد المآثر، وعدم السماح بمخالفة التقاليد الماضية.

5 - أما الطور الخامس، فهو طور الإسراف والتبذير، والمؤامرات، وعدم الاهتمام بأوضاع البلاد والجند، مما يؤدي إلى استحكام الضعف الذي يُعجّل بسقوطها.

وفي الختام فبالرغم من عدم قبولنا اليوم لهذا التحليل التطوري الدائري؛ بسبب طابعه "الحتمي" إلا أنه مع ذلك نجح؛ وإلى حد ما؛ في الاستمرار في جوانب عديدة :

لعل أولها ما يتعلق بالتحليل السوسيولوجي التاريخي، حيث نجح في تصوير أوضاع الحكم والسلطة في عصر ابن خلدون بدقة وأمانة، فضلا عن تبيان أسباب نشوء الدول والاستحواذ على الحكم، وعوامل سقوطها وانهيارها.

كشف عن مختلف العناصر (الممارسات والخصائص والمظاهر السياسية والاجتماعية والثقافية) التي تواكب هذا النشوء أو ذلك الانهيار.

والأهم من ذلك أنه تناول ذلك برؤية شاملة فكل العناصر التي تشكل نسيج المجتمع تتداخل فيما بينها ويؤثر بعضها على بعض، ولذلك فلا يمكن الفصل بين التقدم الاقتصادي والتقدم الثقافي، بمعنى ازدهار الإنسان(12). ومن هنا جمع تحليله بين البعد البنائي والبعد التاريخي.

وبرأينا لازالت القبيلة في مجتمعنا حاضرة اجتماعيا وسياسيا؛ مما يكشف أهمية التحليل السوسيولوجي الخلدوني وكذا المفاهيم الخلدوني في فهم جانب كبير من الظواهر الاجتماعية في بلدان العالم العربي قاطبة، فضلا عن أهميته في فهم بعض السلوك الانتخابي وتشكيلة الأحزاب وكذا مجمل الممارسات التي يفرزها المتحد

القبلي (بأبعاده السياسية الديموغرافية والجغرافية) أو الممارسات التي تضع ذلك في اعتباراتها عند صناعة أو اتخاذ القرار..

الهوامش والمراجع :

1 عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، 1966، ص14.

* لم يكن ابن خلدون يقصد تقديم قانون عام لكل المجتمعات، فهو قد قصر عمله التاريخي على تاريخ ومدن العرب والبربر ممن يقطنون بلدان المغرب العربي. وكان - كما يقول عبد الغني مغربي - على وعي بخصوصية حقل بحثه أنظر:

- Abdelghani Megherbi, La pensée sociologique d'Ibn Khaldoun, SNED, 2° Editions, Alger, 1977, p96.

2 ابن خلدون، المرجع السابق، ص37.

3 Fredj Stambouli, » Ibn Khaldoun et le système social traditionnel maghrébin>> Revue tunisienne des sciences sociales, N°20,(Mars 1970) p 217.

4 المرجع السابق، ص137.

5 Abdelghani Megherbi, op. Cit, p41.

6 Ibid. p18.

7 المرجع السابق، ص37 - 38.

* فقد اقتبس هذا الاصطلاح من الآيتين القرآنيتين ﴿ هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (هود:61) و﴿ كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمّروها ﴾ (الروم 9). لمزيد من التوسع أنظر: حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني، *قواعد المنهج*، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص186.

8 نفس المرجع، ص40.

9 بالنسبة للعمران البدوي مثلا أنظر: الفصل الثاني من نفس المرجع، ص107 - 113.

* يقول ابن خلدون: « ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كان كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالا أو أنظارا... فإن

أدركت الدولة في هرمها لم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها. (وهكذا) فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت غايتها حصل للقبيلة الملك » ص 123.

** نظرا لأهمية مفهوم العصبية ذكرها ابن خلدون - كما يقول مغربي - أكثر من 500 مرة، واعتبرها مفتاح الديناميكا الاجتماعية، فبدونها لا تتبوأ القبيلة السلطة وبدونها لا تتمدن.. أنظر:

- Abdelghani Megherbi, op. Cit, p157.

** يقول ابن خلدون: « وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم، وكبح من أعنتهم، واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو، وفشل ريحهم، ورئموا المذلة والاستعباد. ثم ربى الجيل الثاني منهم على ذلك، ويحسبون ما ينالهم من العطاء أجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة، لا يجري في عقولهم سواه.. » ص145.

10 نفس المرجع، ص147.

* وسرُّ ذلك كما يقول ابن خلدون: « أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون، والمزاج إنما يكون عن العناصر، وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا، بل لابد أن تكون واحدة تؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب، وهي موجودة في ضمنها. وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورياسة منهم، ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا منهم لهم غالبا عليهم، فيتعين رئيسا للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها. » نفس المرجع، ص145.

* يشير مفهوم الحضارة حسب ابن خلدون إلى الخصائص التحضر كما هي معروفة اليوم الحضارة بقوله: « والحضارة إنما هي تفنن في الترف في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه، ومن المطابخ والملابس والمباني والفراش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله. فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا، وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف (..) فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة، لضرورة تبعية الرفه للملك. » نفس المرجع، ص150.

11 نفس المرجع، ص 149.

12Abdelghani Megherbi, op. Cit, p227.